

# الفريفة في سارة كيف الزحام

قصة بقلم صلاح عيسى

## ١ - ظلال شاحبة في مطبعة سيئة السمعة

ما اطول الطريق . ما اخنق زحامه . ان تبدأ رحلة بلا سبب أو هدف ، ذلك هو العذاب . تبحث العين عن لحظة فراغ تسرح فيها فلا تجد . كتل البشر جدران صماء . وتحلم مرة أخرى بالفراغ السعيد ، فمتى يكف القلب عن الحلم ؟ كفانا ما حصدنا من هشيم . تأمل هؤلاء الناس . كم كان السير وسط مواكبهم يوما نشوة القلب والروح ، أحب من الحياة ، أشهى من القبل . ويقول انسان قديم يحتضر داخلك : ذلك كان زمن ومضى ، ويقول رأسك النائه أبدا بخدر النوم : حنام تعود قدمك المنهكتان بقبض الريح ؟ نكب العمر بالاحلام . وليكن لنا في راحة الياس ملجأ في زمن عزت فيه الملاجئ .

بيد ان القلب يخون رغبتك في راحة الياس . ويقود الاقدام المنهكة مع هذا الصديق القديم . السى أين ؟ لا تدري . فلنسر دون سؤال . ويوما قرأت ان عذاب الانسان قد بدأ بسؤال . وعشت تشق علامات الاستفهام . والرحلة بدأت مفرية ، وها هي تتحول الى عذاب . وهو يستحث أشواقك الخاملة للمجهول . لنصبر قليلا ، فربما جساد الزمن بلحظة مسرة تعوض القلب ما يعانيه من خيبة .

كنت قد حفظت صديقي كما أحفظ جدول الضرب ، ونشيد بلادي بلادي .. ولون عيني زوجتي :  $7 \times 9 = 63$  ،  $8 \times 8 = 64$  ، أنت غايتي والمراد . وعلى كل العباد . كم لثيالك من ايادي . عينا زوجتي واسمعتان . سنجابيتنا اللون . انسانهما أزرق كسطح بحر في مقلة شمس . بياضهما ناصع .. في لحظات الكدر تشوبه عكارة كالرماد . صديقي « صابر سعيد عيد السلام الكردي » ، أحفظه منذ خمسة عشر عاما . عمر عذراء صغيرة كالبنات الساكنة أمامي . عرفته ضاحكا وعابسا . عاشقا وزوجا . سجيننا وطليقا . مريضا يمزق السعال صدره . منديله الابيض يعود مبرقعا ببقع دم احمر فان . حكي قصة غرامه . قصيرة كالقرم كانت قصته . نظرة فابتسامة فكلام ففرام فسجن ففراق . مردنا معا بين صفين من العساكر . تتحرك عصيهم الغليظة فتهوي علينا . ضحكا كان . طويلا عريضا . وجهه طفولي . كذلك قلبه . يوم ماتت امه بكى . اكراه البكاء في الزحام . احبه في سكون الوحدة . انحنيت يوما عليه . قلت :

- تهمني بما تعرف ، وها أنت متلبس بلحظة ميتافيزيقية .

ابتسم ابتسامة محزون قديم . قال :

- ولكن العين تدمع .. والقلب يحزن ..

وتلا المقرئ « أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » . قلت : نحن عراة تماما فأين زمن البروج المشيدة ؟ حائط واحد نستتر به يا اولاد الكلب . الرصاص ينطلق وما من ساتر ، والصواعق تسقط وما من مانع . السيارات سارحة مسرعة . تدهمنا . تقضي علينا . لحظة امان واحدة ، ذهب زمن النوم المريح . ومن الذي نبهك يوما الى ان كلمة « قرير العين » لم تعد تستخدم . صديق في الجمع اللغوي ؟ أظن . فكرت ان أقوم .. امشي في الشارع . اسمي نفسي « عمر قرير العين الدهشان » ، أحمل جردل بوبة بيضاء . فرشاة ضخمة . على أرض الشارع اكتب . على حائط السينما اكتب : « أريد ان انام قرير العين » ، « عاش النجوم بلا كوابيس » ، « يسقط بعوض الانوفليس وذباب التنسي تسي » . قرأ المقرئ : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس . أولئك الذين صدقوا . وأولئك هم المتقون » . أغمضت عيني . قلت انني في حاجة الى حبة من منومي المفضل . رؤوس مليئة بالهمّ وعيون اذبلها البكاء . شهوات منطلقة بلا رقيب . جرائم تدبر وما مسن مراقب . ومخير يسرح وراء فكرة خيرة . لافتات مرهقة . كوفي . رقي . فارسي . نسخ . فليكن لي لافتة . يد تخبط ردفا سارحا كقبة ولي . ومرفق يحتك بنهد لم يعرف عبث العابثين بعد . خبز فوق دراجة يحمله بهلوان يخترق الزحام . افواه زاعقة تعرض بضاعة وما من مشتر . اتفاق على ليلة غرام في ركن . شيخ يبحث عن مسجد نذر ان يصلي به . صديقي يمايت فكرته الفريفة . يوما سألني وها هو يعيد السؤال :

- هل طبعت لنفسك بطاقة زيارة ؟

نفيت ذلك دهشا . قال :

- هذا خطأ جسيم .. يجب ان تكون لك بطاقة .. كارد فيزيت . ضحكت . شقنا الزحام نصفين . اختفى عن عيني . ( تلك البنات الساكنة أمامي في خطر . لو أمك الشجاعمة كي أحذرهما . تلعب بالنار . ولكن ما شاني . ليلة قلقة . فشل النوم . وقفة حائرة في الشرفة . آه طفلة صغيرة تقفز الى شرفة رجل في ظلام الليل . اختفيا في الداخل . ظللت واقفا حتى عادت . ذلك النهدي البكر ، لم يتعد عامه الثالث . كيف تعصره في الظلمة كف سفاجة ؟ هل تملك الجنون لتصرخ محتجا ؟ ) .

فجأة وجدت صابر الى جوارني . قال :

- لا أحد من هؤلاء له بطاقة .

- امس منعوني من الدخول اليه . يريدون اخفاء حقيقة  
المرضى عنا .

قلت : نناقش الامر في المساء وما يتفق عليه ينفذ .  
في الظهيرة خرجت لاعدو بالفداء . الارض رمال ساخنة . قدمي  
العارية تدوس حصى كالجمر . لا نسمة هواء . قطة برية تنهش لحم  
عصفور نتن الرائحة امام باب المشرحة . ذباب داخ بالجو الخائض  
يطير في سرعة هستيرية . نظرت داخل المشرحة عبر خصاص نافذتها .  
كانت مظلمة مليئة بأسرة قديمة . ارتجف جسدي فجأة برعب خائق .  
سكن القلب همّ مقيم . تركت الدلو امام باب المستشفى . قال  
« الشاويش متولي » :

- الى أين ؟

- عندي اسهال .

نظر مستريا . قال :

- امش عدل ، الى الاجزخانة طوالي ..

وضعت السيجارة في يده . ابتسم ابتسامة لص محترف .  
قلت انني لن ادخن حتى المساء . لم يبد ذلك مهما لاحظتها . لمحت  
تدهوره السريع قبل ان اصل اليه . خطا ناحلا قد كان . ساقاه  
رفيعتين كعصوين من البوص . عيناه غائرتان كأنهما لا شيء . شاربه  
الكث يلتهم نصف وجهه . عروق الرقبة بارزة . ما أشره المرض  
وكنت تبحث دائما عن « امنا الفولة » كما صورتها حكايات الصبا .  
فنامل ما يمكن ان تفعل باللحم الحي . ما كاد يتكلم حتى دهمته نوبة  
سعال متصل . انتفخت عروق الرقبة ، كادت تنفجر . قلت :

- لا تتكلم .

دهمتني رائحة « الديتول » . كرهتها من يومها . أصبحت رمزاً

للنقاء . قال :

- لا أمل .. اتسع ثقب الرئة اليمنى .. ليلة امس لم أنسم  
لحظة واحدة ..

عاد لهائه يتزايد . محاولا الابتسام قلت :

- لا تكن ثقيل الظل . دور ثلاثة يسلم عليك . وقد طماننسي

حلمي امس ، فلماذا الياس ؟

- بصاقي كله دم احمر ، والحالة أوشكت على الانتقال للدرجة  
الثالثة ..

خفق القلب موجعا . صداقفة العمر توشك على الانقصاص .  
لا أمل في ان تسمع اذن صرختنا في هذا المكان الموحش . وسط  
الكلاب نعيش . من نجدنا في ظلمات الليالي ؟ لن يبدو هزلا ان  
تحمل مصباحا وتذهب الى ادارة السجن في عز الظهر . تشمم  
وتبحث . فاذا سئلت فلنجد بانك تبحث عن انسان . ستبدو نكتة .  
لكننا في زمن ضحك كالبكاء . ابتسم ابتسامة قصيرة . قال :

- اكره ان أعذبكم معي .

تزايد الهمس في المساء . جاء واحد من دور ثلاثة يسال :

- الزملاء فوق يسألون عما ستفعلون .

قال « حلمي » متجهما :

- في الصباح سنقول لهم .

تاملت وجهه الصلب بأمل . قلت انه يستطيع ان يفعل الكثير .  
كان عقلا محضا حتى ليخيل اليّ انه لم يعرف البكاء ابدا . وعيناه  
رغم الزجاج تبدو كاشفتين ، في وهجهما يستحيل الكذب . قلبوا  
الامر بحثا وشرحا . كنت منهكا . حملت مئة « مقطف » من الحجارة .  
كتفي تؤلمني . نابت المناقشة ساكنا . تحدث حلمي عن تطورات المرض .  
سال واحد : اكان مريضا قبل السجن ؟ لمن أكثر من صوت الاسفلت  
البارد والنوافذ المفتوحة وزمهرير الشتاء . قال آخر : والفضاء المهلهل  
والفداء السييء . وتساءل : ومستشفى السجن ؟ حلمي بصوت  
حاسم : زفت وقطران . مستشفى بدائي لا يصلح لعلاج الدوستناريا  
كفكف بالدرن ؟ الاسم مرعب . شرحت أثناء المناقشة . الى قريتنا

فكرت في ان النوم الذي أخذه فقد مفعوله . ( بدانا بالليبريوم  
١٠ مليغرام ، ثم الليبريوم ٢٠ مليغرام . حبة صفراء صغيرة .  
تحت اللسان تدور . يد رحيمة تتسلل تحت الجلد . تمسح الاعصاب .  
تهدهدها . يبدو النوم قريبا . يخفي ذباب النسي - نسي . تموت  
على سطح الزجاج بعوضة انوفليس حقيرة . اثئاب . اضع رأسي  
تحت الوسادة . انام . انتهينا بالفاليوم . حبة بيضاء سميكة .  
وكوب لبن ساخن في اثرها . ضحك في الحجاب الحاجز تسكل  
الحنجرة عن النطق به . ابتسامة بلهاء . ليذهب كل شيء الى الجحيم .  
الماضي والحاضر والمستقبل . ملعون في كل كتاب : الحزن والقلق  
والخوف . بدانا بالليبريوم ١٠ مليغرام في سجن القناطر سنة ١٩٤٩  
وانتهينا بالفاليوم وكوب اللبن الساخن ونوال جلال الدين فسي  
١٠ ديسمبر ١٩٦٦ . تصفيق حاد ) .

عاد صابر من كثافة الزحام :

- أين أنت يا رجل .. ما راك في موضوع البطاقة ؟

- معي بطاقة عائلية فيها اسم زوجتي وابنتي . فكرت في الفانها .  
خفت ان ينقص مقرنا من السكر والزيت .

ضحك . ضحكته عالية كطفل يكره الاصول . وضع ذراعه في  
ذراعي . ( امس عاتبتني زوجتي . عندما نسير معا لا اضع ذراعي في  
ذراعها . عجبت لانها تهتم بذلك . قالت : أنت ما عدت تحبني .  
قلت : لسنا اطفالا صفارا . عاتبتني بسمتها . سرح الكدر رماديا في  
بياض عينها الناصع . قالت : لم تكن يوما صفارا ، وكنت لا تترك  
يدي ، لا يخف ضفطك عليها بل يزداد ، فماذا حدث ؟ عذابنا بدأ  
بعلامة استفهام . نشوتنا بدأت بها أيضا . كاسفا قلت : الدنيا حر .  
أخشى ان تعرق كفي على ذراعك ) .

ها هو ظلي يسير الى جواربي . ترحل الشمس الآن وتولد فسي  
الصباح . نحن نرحل دون ان نولد . ذلك الظل من لي يتحدد مثل  
تحديده ؟ وكيف يتأني ان تكون له هذه الخطوط الحادة ؟ خلاياي  
لا يجمعها شيء . قال :

ولكنك لا تستطيع ان تلمي بطاقتك المائلية ؟

ضربني واحد بكتفه وهو يرائر . دهشت لان لي كتفا . تحسسته  
فرحا بوجوده . قلت :

- ما معنى ان تكون لك بطاقة ، فيها اسمك وتاريخ ميلادك  
وبصمتك ؟ هذا شيء سخيف جدا .

سعل سعلة أطول من المعتاد فعاودنسي القلق القديم . قلت ان  
رحمة أدركته قبل ان يقضي عليه الداء . والى متى يحتمل صدره  
العليل معاناة الحياة ؟ ها هو يبدو قويا يدب فوق الارض بعنف .  
كان الموت لم يسكن صدره شهورا طويلة . شاهد على ان الحياة  
قاهرة الفناء منذ القدم . لكن محكمتك لا تؤمن الا بشهود الزور .  
( بالقرب من القلب الطيب اختبأت يوما متفجرات الموت . سهر أكثر  
من طبيب يتهدد الحالة بقلق . يومها شممت رائحة الموت . ما أتس  
ان تموت غريبا دون ان تنسوح عليك امرأة ، يتفجر قلبها بصراخ  
الاحتياج : يا سيمي .. يا ضبعي يا حارق مهجتي . في القرية تموت .  
لست سبعا ولا ضبعيا . تبتل فرحا صدور الكلاب ، يصيحون : مبروك  
انتيينا من واحد منهم .. العقبى لمن بقي . في فناء السجن عقدت  
اجتماعات سريعة . تحت نظر الحراس تبادلنا الكلام همسا . ونحن  
في الجبل يوما قال واحد بجواربي :

- سنكون كلابا اذا صممتنا . لا بد من نقله الى المصلحة .

تحدث واحد عن العقل . قال آخر ضاحكا : وقمنا في يد من  
لا يخافه ولا يرحمنا . ثبت « حلمي » نظارته الطبية بعد ان انزلت  
بالمرق . قال : كطبيب اصرح انني لا اضمن حياته اذا لم ينقل الى  
المصلحة . عاد يمسح نظارته من تراب الجبل . رفع « الامزة » هوى  
بها على الحجر الصلب . حملت « القطف » على ظهري لاعدو بالحجارة  
المتكسرة . قال :

اسمه عمر .. نعرفه باسم عمر حورية ، نسبة الى زوجته التي لا يسير أحدهما بدون الآخر ..  
وجهت الدعوة اليها .. مضت تاركة عبيرا طازجا في الغرفة ..  
قلت ضاحكا :

– يا ابن اللثيمة .. ولماذا لا تشخذ دعوة لزوجتك ؟!  
بضحكة عالية .. قال :

– دعوت حورية لكي أضمن إلا تنافسني أنت ا  
هكذا دخلت حياتنا .. ذلك الوجه الآخر من الحياة ، كيف غاب  
عنا . ها انت تكتشف جهلك بالكثير من الاشياء . وحتى في عالم  
النساء تبدو غيبيا وأحمق . فلنتعلم مرة أخرى كيف نعيش ) .  
بشيرة ساخرة قال :

– سيكون زواجا رائعا .. تعود من بيروت غدا ، بعد أن حصلت  
على الطلاق من زوجها .

– وفي الشهر الماضي طلق زوجته ..  
– شيء جميل جدا .. ألم تفكر في زيارة مطلقته ؟  
نفخت بغيظ قائلا :

– حورية معها باستمرار .. وعندما رأني أسمعتني كلاما  
قارصا .. ما ذنبي ؟!

(( أنت تعلم أنك كاذب .. كان يتدهور يوما بعد يوم وأنا معه .  
لم أفكر يوما في الهاوية التي تغفر فاما لتبتلمه وتبتلمنا . وقلت  
يوما ان عمل زوجها معروف . فكيف غاب ذلك عن حلمي . سألته .  
قال :

– هذا شيء قديم .. وقد انفصلت عنه ، نحن أبناء اليوم .  
لم نقنعني الإجابة . ليلة غاب الويسكي بوعينا . ضحكت كما  
لم أضحك طول عمري . كدت العب لهم الوسطى لولا لحظة صحو  
طارئة . أقيت شعرا حزينا . تحدثت عن فلسفة الحزن وعن أمي التي  
علمتني ان أبكي وأنا بعد طفل . كانت في قميص نوم شفاف تتفجر  
انوثة وحيوية . صاح حلمي هاتفا بحياة الشعب . ضبظت سكرانا  
يكذب لأول مرة في حياتي . قالت :

– أنا حزينة .. أشعر ان صابر يكرهني .. لا يقبل على  
سهراتنا .

– صابر انسان جاد اكثر من اللازم .

– .. عملت ضدكم سنوات .. لكني لم أكن اعرفكم ..  
كانت الليلة تشجع على البوح . تحدثت كثيرا عما فعلت .  
استبشعت امعائي ذلك كله . قلت اننا نحتضن جلادينا بكل غباء فماذا  
حدث ؟ . ولماذا فقدنا قدرتنا على المقاومة تماما . وعدت من الحمام ،  
بعد ان تقيأت كل ما في جوفي وغسلت رأسي . قطعت عودتي مشروع  
قبله . نحيت وجهي متجاهلا . قالت حزينة :

– ومرة علمت ان واحدا من الذين عملت ضدهم قد مات في  
السجن ، فبدأ عذابي ..

حط علينا الصمت ، يده تحيط بشعرها ، تعاتبه ، استمرت :

– وظللت اسبوعا لا أنام .. وأصبحت بانهيار عصبي كامل ..

طلب منها ان تصمت .. استمرت :

– ولولا الفاليوم ما استطعت ان أنام ..

من تلك الليلة عرفت الفاليوم لأول مرة .. فيا للفظاعة .

اشعلت سيجارة . اقتربت مخميا به من سيارة مسرعة . قال :

– زرت مطلقته هذا الاسبوع .. رتب لها شؤونها المالية ..

صديقنا يتصرف بنذالة حقيقية .

دافعت عنه دفاعا ضعيفا .. قال :

– انه طبيب معروف ، مكسبه كما تعلم .. لكنه يريد ان يجوع

اولاده ومطلقته ناسيا ما تحملته من أجله ومن أجلنا .

– لا داعي لان تشتبك مسائل خاصة بمسائل اكبر منها وأهم

بمراحل .

طرت . اكلت فطيرا وعسلا ابيض مع أمي . لبست زوجتي ملسا  
ريفا فبدت فائتة فيه . خرجت الى الشارع تزور بعض القريبات .  
عدت من قريتي محملا بالفبار وكومة من الهموم . كان القرار بصاغ .  
قال حلمي :

– سابلغ الامور غدا اننا سنضرب عن الطعام اذا لم ينقل صابر  
الى المصححة خلال اسبوع ..

وافق الجميع . تساءل اكثر من صوت : وترتيبات الاضراب ؟ .  
قال : سيقوم بها عمر الدهشان . صمت لحظة . قال :

– اريد تفويضا بان اتعامل معه حسب الموقف ..  
طلبوا توضيحا ، اهتز شاربه الكت :

– يعني .. اذا قلّ أدبه أو طالت يده عاملته بالمثل ..  
وافقوا بعد مناقشة مرهقة ) .

انشق الزحام عن لافتات منشابكة : (( حاتي الحرية ) . (( فطاطري  
المشهد الحسيني ) . (( مكتبة محمد علي صبيح واولاده ) .  
(( الستر ) . (( الجامعة الازهرية ) . قال صابر :

– ايها الرجل الفاليومي .. الى أين ذهبت ؟

– آه .. كنت أفكر في حلمي .. ستحضر استقبال نوال في  
المطار غدا !

– طبعاً .. لا شيء ورائنا . ولكن قبل ذلك يجب ان تكون معنا  
بطاقات .

وقفنا نشرب عصير قصب . كان غريب الرائحة . ذكرتني لذعته  
بالخمر الذي كنا نصنعه في السجن . كادت معدتي تنقلب . ما أبشع  
كل هذا .. قلت :

– تتكلم كلاما غير مفهوم ، أرهقتني منابعتك .

– انت رجل فاليومي وهذا يكفي .

نفخت ضاحكا ..

– لم أعد أستجيب له . وامس سألت حلمي ان يجد لي بديلا  
عنه . صاح ساخطا انني استغله استغلالا سيئا .

ضحك ضحكته الجمهورية العالية . نظرت الينا بنت بلد بدهشة .  
علقت عيني بعينها . شاقني حيويتها ودعوة عبت بريء في نظرتها .  
قال :

– ولكن زوجته باعتبار ما سيكون هي المسؤولة عن تحويلك الى  
الحالة الفاليومية ..

( طولها المنسجم ، نطقها اللفظة (( البوستيش )) ، واللدغسة  
وهي تقول (( البيروك )) . حكمت زوجتي بانها مدعية ونافحة . التقيت  
بها اول مرة في عيادته . قدمها قائلا :

– مدام نوال جلال الدين . صاحبة معمل لرسم القلب وتحتكر  
رسم القلب لمرضاها .

التفت اليها قائلا :

– وهذا يا ستي (( عمر الدهشان )) الذي حدثتك عنه .

ابتسمت ابتسامة واسعة . قالت :

– روى عنك حلمي الكثير .

– خيرا ؟!

– الى حد ما .. وهو يقول انك أعزف من يسكر في العالم .  
ضحكت قائلا :

– غبية ونميمة لا تصدقان الا عن وغد مثله ..

– سمعت انك كنت تسكر بعسل اسود مخمر ، فما رأيك في  
الويسكي ؟

– أموت فيه .

قالت وهي تنصرف :

– عال .. سانتظرك مع حلمي غدا ..

قال حلمي مصافحا :

– ها أنت ترين انه خجول ، والواقع اننا لا نعرف شخصا

ضحك بشدة ، وجرّني فدخلنا « كفر الطامعين » . قال :

– هذا ما فلتته لها . وقد وافضني وقالت انها لم تنتظره ولم تضع من اجله فقط ، لكنها فعلت ذلك من أجل أشياء أهم .

شعرت براحة مفاجئة . فلت ان هذا يوفر علينا الكثير . ومنذ متى نسينا هذه الشوارع الضيقة المزدهمة بالجوع والفقر والمرض . في هذا الحي يقطن الشعب الذي تعذبنا به كثيرا ، فكيف تنكر أنك رائحة حياته القذرة . هنا يموت رجال من نقص الزاد وهجوم الداء ويقتل الرجل أخاه من أجل قرش واحد كما تروي الصحف أحيانا . لكن ذلك أصبح مجرد كلام كموضوعات الإنشاء التي كنت تأخذ فيها درجة نهائية . قذفت امرأة بهاء فدر جاء تحت إقدامنا . تأملت خلقتها المشوهة والنفذارة في أقدامها . قلت لا مسرة لاحد هنا . والنوم مع هذه المرأة لا يمكن ان يكون نشوة ولكنه عذاب . قال :

– .. ولكنها ، أعني مطلقا حلمي ، قالت ان الموافقة على الجرائم الصغرى ، يعني الموافقة على الجرائم الكبرى .. تديرت الجملة مرات . وقلت ان شيئا لم يعد يهمني ( وفي كل ليلة تنتقل البنت الساكنة امامي عبر الشرفة الى حجرة نوم جارها . وأظن أنتظر عودتها بقلق . وفي الصباح أنامل صباحها النضر . وأعجب لانني أتركها تنحدر . ومرة حدثتني النفس الامارة بالسوء ، أن أفاسم صاحب الشرفة مكاسبه . شرفتها وسط شرفتي . والذي ينتقل الى شرفة اليمين . ينتقل الى شرفة اليسار . وقلت أنني أستحق عس جدارة لقب الوغد )

تهدنا في الشوارع الضيقة . المنفصلة المتصلة ، كبيت جحسا . وقف يسأل عن عنوان . قال :

– وأنا أناقشه مزحت معه مزاحا ثقيلًا .. اقترحت عليه صياغة طريفة لبطاقة الدعوة ، ولكنه زعل .

– أعرف ان مزاحك قاس .. ماذا حدث ؟

– قرغان .. ومع ذلك فهي مجرد نكتة . لم نصرف الزواج ببطاقات . أحبك يا زميلة . وأنا أيضا . ما رأيك أن تتزوج . لا مانع قبل ان يدهمنا اولاد الكلب ويلفوا بنا في السجن وفي نفس اليوم نذهب للمأذون . وبعد شهر نكون انت في سجن ابو زعبل وهي في سجن القناطر . وتبحث عن شوايش جوعه أهم من وظيفته فتتصل القلوب برسائل غرامية . ألم يتزوج حلمي اول مرة بهذه الطريقة .. فلماذا يطبع بطاقات ؟

ضحكت قائلا :

– أنت أفسى مما ظننت ؟

– ألم أقل له شيئا .. اقترحت عليه أن يكتب على غلاف البطاقة « زوج زليخة وعاشور » فانار مشكلة كيف يكتب مهنة نوال في البطاقة . هل يزعم انها دكتورة كما يفعل . أم ان النقابة قد نحرجه لانها ليست كذلك ، فاقترحت عليه ان يكتب تحت اسمها : من اعنى بيوت الطبقة الجديدة ، فلوى بوزه ..

صمتنا . غنى : زليخة بتحب عاشور .. وعاشور بيحب زليخة سألته أين نحن ذاهبان ؟

– أعرف مطبعة هنا .. أريد ان أطبع بطاقة باسمي ..

سألت دهشا :

– ما السبب ؟

– لا بد ان يحدد كل منا بالضبط من هو ؟

( قلت أنه قاس . ولكن قسوته تعتمد على حقيقة ما انحدر اليه حالنا . ولكن من الذي يستطيع مقاومة لحظات الضعف الى الابد . تشاجر حلمي مع الامور بسببه . تبادلنا سببا مقدعا . ضربه العساكر بأحذيتهم الجلدية السمكية . عاد دامي الوجه . شقت شفته السفلى . آثار التآلم الجرح واضحة . بدأ الاضراب . في اليوم التاسع قال الامور : سننقل زميلكم الى المصحة فتناولوا طعامكم . صمتنا ولم نرد . كان فمي ملحي ساعتها . بللت لساني بالماء . أشحت بوجهي

عنه . في اليوم العشرين جاءت عربة الاسعاف . تحاملنا على أنفسنا . شاهدتهم وهم ينقلونه على نقالة مستطيلة . كنت ضعيفا لا أكاد أقدر على المشي . سرت بجواره وحلمي معي . قال حلمي :

– شد حيلك .. لا تستسلم للوهام . حالتك عادية . وبالرعاية تسترد صحتك غامت عيناه . انقلب لونهما بيضا كله . هز رأسه بابتسامة شاحبة . قال :

– اسمع .. عندي عشرون قيراطا في البلد .. اذا ميت .. ف.. وضعت يدي على فمه . منمنته من الكلام . شوحت بيدي مودعا . كان الغروب يهبط وانيا على فناء السجن ، والشمس قانية . عصفير كثيرة تتفاخر هناك . أخفيت وجهي في حائط .. وبكيت !

\*\*\*

لافتة ناحلة . فقد سوادها لمعت . كتابتها البيضاء باهتة . قرأت بصعوبة « مطبعة العدالة الكبرى لصاحبها محمود المهدي » . الرجل أثر من عهد باند . على صندوق الحروف انحنى . عيناه الضعيفتان محاطتان بنظارة سميكة . عندما قام اكتشفت أنحناء غير يسيرة في قامته . والمكان رطب ومظلم وموحش . ماكينة القص في الركن الايسر . عاد الى ركنه متسانلا عما نريد . قال صابر :

– اريد ان اطبع كرنا باسمي

– حرف أم اكشيه ؟

– حرف .. ١٨ رقمه أبيض ..

لم يتحرك من مكانه . عاد للمقاهة مواصلا التقاط الحروف . قال :

– العلبة ١٥ فرشا . وكل مائة زيادة بعشرة قروش . عندك قلم ..

اكتب الكرت ..

انحنى صابر على منضدة صغيرة بجانب ماكينة القص . كتب

صابر الكردي

نائب سابق – حاليا شيطان آخرس

١٨ شارع مراد – الجيزة .

ابتسمت مذهولا . فلت ان الجنون يدهمنا . ناوله الورقة . لم

يعد يده ، قال :

– اقرأ وساحفظ ..

سمع بهدوء . استرجع الكلمات . قال :

– نحن نأكل عيش يا استاذ . هناك بوظة بجوارنا اذا أردت

المرفشة .

ذلك الجنون كيف يتساقط علينا ؟ وقديما قالوا ان رؤوسنا

أخطر ما فينا . فيا للكارثة التي تأكلنا .

سعل صابر . قال :

– ولكني لا أمزح يا اسطى محمود ..

ترك الرجل ما في يده . التفت الينا . قال :

– هل حضرته ... ؟

ولف يده حول رأسه في حركة دائرية ..

قلت ضاحكا :

– لا .. ومع ذلك ما شانك أنت .. اطبع له ما يريد .. وخذ

نقودك ..

دعانا للجلوس على دكة خشبية بجواره . قال :

– كيف يا استاذ ؟ . لا بد ان أفهم . ما معنى نائب سابق . هل

حضرتك وفدي ؟

– لا !

– أنت أصغر مني بكثير ، ولا أذكر اني رأيتك بين عمال العنابر

أبدا ..

شاقني الحوار . قلت :

– ألا يوجد توريون غير هؤلاء يا عم محمود ؟

ضحك الرجل وقال :

– هذا عن ايامنا .. اما ايامكم .. القصد .. حضراتكم ايه ؟

- لم يكن لنا عمل سواه .
- تنهدت . قلت :
- لا تجهل المخاطرة طبعاً .
- وهل جهلناها يوماً ؟
- بعد لحظة صمت :
- ما رأيك .. أتبحث الامر معاً ؟
- متهرباً من عينيه قلت :
- أفكر ثم نتناقش ..

## ٢ - أما أحدهما فيسقي ربه خمراً .. وأما الآخر فيصلب

انزلت قديمي على الرخام اللامع . قلت : ها نحن نفشل في أول اختبار لنا . سنطرد من هذا الفردوس بتهمة الجهل بأدابه العظيمة .. ومن السهل أن تسأل . ولكن كشف الجهل يبدو معرة . ولنؤرخ لهذه الليلة ، ففيها دخل سليل كفور المتوفية الهيلتون لأول مرة . والذي اختار اسم فاعة « الف ليلة ليلة » ذواقة خبير . أما كفتاً أمي فقد دبقتهما خضرة لا نزول . عشرة أعوام تعجن روث الماشية . فمن يسول هذه الحقيقة الآن ؟ ولتستدع قدرتك السابقة على التحدي والاستهانة . إذ ذاك نستطيع أن نبصق على هذا المكان . نختره . هل نستطيع أن تفعل هذا حفا ؟ كان ذلك ممكناً في الزمان الخالي . في الداخل كانت قوة تحد كبير ، فمن يعيد ما فقد ؟ فدنا أن ندخله لا غازين ولكن مبهوتين . ملتحفون جدد . لن نستطيع بعد ذلك أن نزعج ان هذا المكان لا يدخله الا اللصوص ومصاصو الدماء ، فهذا كلام يبدو كالكذوبة . هل تسعفك الذاكرة باسم ذلك التحمس الذي اقترح مرة أن نحوله الى مستشفى للشعب ؟ ستكون تكتة رائحة لو انتهى التفحيش بأنه حلمي نفسه .

يوم عودتها سهونا في « سنريو المطار » . انحنيت عليّ ترد تهنتني بحصولها على الطلاق .. ثم سألت :

- كيف حال زوجتك ؟
- أشعل حلمي سيجارتها . قالت :
- كيف نخاطر امرأة بجمالها في عملية سخيفة كالحمل ؟
- انفلتت ضحكة صابر الريفية . لغت الينا الانظار . قال :
- لهذا تتزوج النساء ، ولعل لديك وظيفة أخرى لنفسك .
- حلمي بجفاء لم يفلح في اخفائه :
- للضحك هنا أصول يا سيد صابر ..
- ابتسم كيانه الضخم بسمه ساخرة :
- طبعاً تزيد الاصول دائماً في المستوفدات ومجمعات القمامة .
- صمت كلاهما . قالت نوال مفيرة الجو :
- هناك فرصة سانحة لعمل مريح لك . ما رأيك ؟
- تسألت بلهفة :
- أين ؟
- شركة بتروك كويتية .

سألت عن التفاصيل باهتمام . أجر مجز حفا وعمل قليل . أغير السفر ما يملا القلب من حيرة ؟ أتستطيع هناك أن تجد النوم المريح ؟

قلت :

- أمامك وقت لتفكر .. ولو لم يمانع صابر بوسعي أن أدبر له فرصة أخرى !

تناول رشفة من كوب الماء . نظر الى الراقصين في البيست . قال :

- فكرة طريفة .. وأمس لعن عمك محمود الزمان الذي جعل

مطبخته تبدأ باليد السوداء وتنتهي برجوع الشيخ ..

أشحت بوجهي . لم ترد . تظاهرت انها لم تفهم . استأذن حلمي وقاما يرقصان . تأملت جسدها الفارع ملتصقا بجسده . قلت ان مقاومة ذلك كله ليست مستحيلة . ولكن أين القوة ؟ قال ساخراً :

- أهنتك بالوظيفة الجديدة .. ستدق أموال الاحتكارات الاميركية قبل أن تموت (

همست في أذنه .. ابتسم قائلاً :

- آه .. انتم بتوع الخبز والحربة .. أهلاً ( ثم بعد لحظة )

ولكني آسف .. لن اطبع الكرت .

- لماذا ؟

- مطبعتي سيئة السمعة .. تدهمها الشرطة في كل وقت ..

والكرت مريب ..

تسألت عما أساء سمعة المطبعة .. قال :

- طبعنا بها زمان منشورات اليد السوداء .. وجماعة الانتقام ..

وكان أولاد عنایت يجلسون عندي قبل أن يقتلوا السردار ..

- ولكن هذا تاريخ فديم .. فلماذا يلاحقونك ؟

- ذلك شأنهم .. والادهم من ذلك انني عندما كبرت وأصبح نظري

على فدي جئت بمن يعينني على العمل فزاد الطين بلة ..

تسألت عيناى . انحنى فأخرج نصف سيجارة . أشعلها . قال :

- طبع بدون علمي كتاب « رجوع الشيخ الى صباه ووصفات لتقوية

الباه » وأخذ يوزعه . فكبس بوليس الاداب المطبعة ..

جلجلت ضحكات صابر . نظر اليه الرجل دهشاً . قال :

- لا تزعل يا عم محمود ، تصحكني أحيانا النهايات الهائلة للاشياء

الجادة .. ولكن لعلها لا تكون نفس الحروف التي طبعت بها منشورات

اليد السوداء .

قال الرجل ميتسماً كأنه أدرك النكتة :

- لا .. الاخرى راحت .. عرفت واحداً منكم أيام الحرب ..

طبعت له ما جاء به . وطلب صندوق حروف ليشتريه فأهديته

صندوقي القديم ..

تزايدت صيحات صابر . قال :

- أيها الرجل المعجوز .. كيف لا تعرف صابر الكردي .. هل

أذكر لك علامة . حرف العين كان ناقصاً سبع قطع . وعدت بسدببرها

ولدي لم اجيء مرة ثانية ..

رفع الرجل رأسه . بانت على ملامحه معاناة الذكر . صاح :

- هو انت يا مرحيبي ..

احضن كل منهما الآخر في شوق . ووقعت انظر اليهما حائراً .

## \*\*\*

الى الزحام عدنا . أقبل المساء على استحياء . الزحام عنمسة

محرر . صممه طويل اطول من المعناد . فحرت ان ننظر الاوبوييس .

قال : بل نمسي . سننسخ زوجتي عابيه وبعول : لك بيت فكف عن التصعلك .

غبت بالليالي دون أن ننعج . ذنرنا يدك قالت : كان وراكم ما تفعلونه .

أما الان فالصعلك مريب . تسفني انها بدأت نفار . بدأ الامر مبهجاً

في البدايه . أصبح مزعجاً اخبار الابهيارات تنوالى . البيوت النسي

صمدت لعواصف الزمن فاحت منها رائحة العفونه . قالت مرة : فقدم

الكثير حما . ولكنكم ناكرون للجميل . قلت : حورية ، لا تبالغي ..

حوادث فردية والطلاق يحدث كل يوم . همهمت : انتم تطلقون كل شيء .

بعد الانتظار الطويل ؟ فيم كان العناء . لماذا يطلق حلمي زوجته ؟ من

أجل هذا الشيء المسمى نوال ؟ نفخت وقلت : التغير قانون الحياة

فلا يزيدى بماسستي . وضعت الكريم على وجنتيها ودارت بمقدمة كفا

حركة دائرية . قالت : ولكن الندالة ليست قانونها . تأبعت اهتمامها

بتجميل وجهها رانيا . التفكير أصبح عملية مرهقة . ماذا حدث لنا

حفيمة . لن ننهي علامات الاستفهام حتى تصيبك بتصلب الشرايين .

وغدا سنقف في صاله المطار ننظر عودة نوال بعد حصولها على الطلاق .

وسنجتمع بعد غد في حفل الخطوبة . سيكون طريفاً أن ادعو أمسي

للتعرف بها . فكيف تتصرف المعجوز الريفية مع امرأة مثل هذه ؟

أوف . صدمني رجل مار . قال صابر :

- قررت أن أعود للعمل .

- أي عمل ؟!

بضحكة ساخرة قال :

- لماذا غابت حورية ؟

- اعتذرت بالمرض .. ولعل زهورها أعجبتك !  
ضحكت قائلة :

- نعم أرسلت لي زهورا صفراء .. أنت تفهم لفة الالوان طبعاً .  
( « أجل : الموت . هذا رأيها فيها . وأمس صاحت : لن أخضر ..  
مشفتكم انتم قبلوها كما تشاءون » ) .  
قلت مهونا :

- لا تخصمي للاوهام .. حورية يحترمك ..  
- اشكرك على مجاملتك .. الحقيفة انها لا تحبني .. وكثيرون  
منكم كذلك .. دعونا الجميع .. وهالك النتيجة .  
- مشاغل الحياة ( ثم ضاحكا ) ونحن مستجدون في هذا العالم  
الهيلوني ..  
حلمي مبتسما :

- البعض يقول انني تبرجت ، وهذه مجرد شعارات فارغة ..  
( « أصبح كل الكلام فارغا .. فلتفهقه كل شياطين الجحيم . ودو  
صدق ما يقول ، اذن فحيانا ضاعت في لعبة هائلة . وملعون أب من  
يصدق الاحلام بعد ذلك . تأمل الرافصة التي امامك . ما امتع جسدها .  
وفبل أعوام لم تكن العين ترى الا حشوريه . كان عنافها منعة القلب  
والروح . ثم أصبحت العين تزوغ أحيانا وراء ردف سارح أو نهد هطل .  
بيد انها ظلت مرفقا الجسد المرقق . وها نحن نفكر في الخيانة . وفي  
لحظات الحب كنت أندمج الي حد لا أميز لنفسي أعضاء . ومن طوارئ  
الزمن الجديد أن تسعى بكل شيء حولك . تحولت لحظات نشوتنا الى  
عذاب . كالذباب المقلعة أصبحت . حول زواجهما اختلفنا . صاحت .  
سببت . دافعت ما استطعت . قالت : عندما يبدأ الجيل في الانهيار  
لا يبقى شيء . لاحظت أسيان انها بدأت تهتم بتجميل نفسها . عرفت  
منصدة التسيحة أدوات التجميل . وأول مرة رأتها نوال قالت :

- زوجتك جميلة ولكنها لا تعرف كيف تكون أنثى . دعها لي .  
رفضت يومها . سخرت منها حورية الى حد التجريح . لكن  
القلق بدأ ينتابها تدريجيا . تزايد . قلت ان هذا طبيعي . ذبل شياها  
في سنوات السجن الطويلة ، ولعلها تظن انني قد أطلقها . فهل خطر  
هذا على القلب . ما أقساها من تصورات .. صاحت :

- لم يعد هناك مستحيل .  
- حورية .. لا تحللي حياتنا جحيما ..  
تمرت عيونها الجميلة .. سرح الكدر فيهما .. قالت :  
- ذهب كل شيء فلماذا أبقي أنا .. هه .. أصبح شامركم الوحيد:  
انكحوا ما طاب لكم من النساء .  
صحت غاضبا :  
- هذا تجريح لا أقبله ، وشخصي لا يهمني .. لكنك تتعددين الحدود  
الى أشياء أخرى ..  
ضحكت ساخرة .. قالت :

- الله يرحم الجميع .. سنعود من الكويت بسيارة وتصبح  
هيلتونيا كصديقك الطبيب ، فهل تبقى علي !!  
أصبحنا نقتات بالكدر . شكوكها تزداد . ولتقر بأنه رغم تأكيداتك  
فان النفس لا تبرأ من الغرض ولا من المرض ..  
انصرفت نوال لصيوفها . نظر حلمي الى كوكبة صغيرة من زملاء  
السجن يجلسون في ركن المكان قال :  
- قاطع الزملاء حفل زفافي .

- هذه أوهاام .. مجرد مشاغل ..  
تناول كأسين من خادم كان يعبر المكان . قال :  
- لا تعزني .. يأخذون موقفا مني وانت تفهم ( ثم بعد لحظة )  
ماذا يريدون ؟ انتهى كل شيء . ساعيش حياتي كما أريد .  
- لا تشغل بالك .. أنت تفهم السبب ..  
باستهانة قال :

في زحام القاعة تبدو الحياة أكثر مرحا .. وتأمل هذه الكوكبة من  
الحسان . غابت عن العين كثير من المرات . وهذا العطر الفواح . ولا  
تلمح العين الا عددا قليلا من زملاء الزمان الماضي ، فهل تجاهل حلمي  
دعوتهم أم أفتدتهم رهبة المكان . ولو كان هنا .. أكان يدعوهم ؟ آه ..  
كنا ضحكنا حتى طفرت الدموع . ( ويوم اختفى كان يوما كابوسيا فمتى  
تزول مرارته . بلا مقدمات على الاطلاق . بيد انني راجعت الشواهد  
بعد ذلك فأيقنت انني كنت غيبا الى درجة الحماقة .. أين اختفى حذر  
الزمان الماضي . كنا نشم الخطر على بعد أميال . ولكننا نعيش عصر  
الغاليوم فلنعتنا الله على كل شيء . صفتت على الجرس متأملا اللافتة  
التي تحمل اسمه . باهتة طول ما مر عليها من أزمان . وضعت لاول مرة  
في عهد الطلب بالجامعة . ويوما كانت مقرا لمطبعة مرمية برقت فسي  
حناياها عيوننا المفترسة . وتفجر الحماس . طال الضغط وما من يفتح .  
أخيرا أطل وجه التجارة . قالت :

- أستاذ عمر .. الحمد لله .. هالك المفتاح ..

قلت :

- ألم يقل متى يعود ؟

بوجه كاسف قالت :

- الله أعلم .. جاءوا فجر أول أمس وأخذوه .. أصر قبل أن

يمضي على ايقاظي وترك لك المفتاح معي .

جلست قليلا في صالة شقتها . دخنت بشراهة . سألتني :

- ماذا حدث يا أستاذ ؟ ألم تقولوا ان هذا قد انقضى ؟!

ابتسمت محزونا ولم أرد . سألت حسان الشقة الفاحلة أن

تحدثني فاستعصى عليها الكلام فيا للقسوة . فتشت الأوراق بدفة .  
حرقت بعضها . قبل أن أمضي تذكرت درجا سريا في الدولاب . عدت  
اليه . يا لي من غبي ! كدت أنساه . فرأت بانتباه . مزفت كل شيء .  
قالت التجارة :

- لا مؤاخذه يا سي عمر .. كلمني الاستاذ عن الايجار ..

- سيصلك في موعده ..

ها قد مضى أكثر من عام على غيابه .. ففي أي ارض يستقر الآن .  
وماذا تغير من صور الماضي ؟

في أي سجون هذا العالم يستقر الشاويش متولي . وعنبر ٣ من  
يسكنه الآن ؟ لصوص أم فوادون ؟ وها نحن في ليلة هيلتونية فاخرة .  
ما أطرف أن تصرخ الآن بما حدث . تلقى حلمي الخبر بتيسات غير  
عادي . قال :

- نصحنه فلم ينتصح . الظروف تغيرت ..

تأملت الكلام الذي فاهه بذهول . أهى نفس شفاه الزمان الماضي؟  
قلت :

- لم يكن يفعل ما يضر . والسائلة أبسط مما يصورونها . وحتى  
لو لم تكن كذلك .. فهل تظن انه كان ..

نفخ بضيق .. قال :

- انه مفامر ومطرف .. ويسارته طفلية ..

هذا عصر البخار والمفونة .. اغلقوا افواهكم قبل ان تقولوا  
الدنيه . ويوما قبل ان يفيب قال : « لن يحكموا علينا ان نظل كالافوات  
والبلد في حالة حرب » . أما يوم ماتم أمه فان المقرء قرأ « ثم بدا  
لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين . ودخل معه السجن  
فتيان . قال أحدهما : اني أراني أعصر خمرأ . وقال الآخر : اني أراني  
أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله انا نراك مسن  
الحسنين » . ساعتها قلت ان الحلم قديم وكذلك القهر . فمتى يرتاح  
القلب ؟ ها هي اقدامنا تنزلق الى مستنقع لا ندرى فراره . كذلك  
الجب الذي ألقي فيه يوسف . فمن لنا بمن ينجدنا . وهل تملك حقا  
قوة ترد بها اغراء التي تقول لك : هيت تك . حفل زفافهما شاهد  
على ما انتهينا اليه .

اقتربا مني . فاح عطرها على البعد .. لمعت الاضواء على فستان

الزفاف الابيض . سألت :

- هذا تاريخ قديم وانتهى .. المسألة متعلقة بزوجها السابق .  
وهي ضحية وليست جانية . لقد اضطرها للعمل معه ضدنا . ثم انسا  
قد ابتسما في وجوه الجميع وانتهى الامر .. هل هي وحدها التي  
وفعت من قعر القفة !!!  
أبمثل هذا المنطق كنا نعالج المسائل ؟ أغلقوا أفواهكم فبسل أن  
تقولوا الدنيا ..

انحنى يسلم على واحدة من المدعوات . قدمها لي . تأملت اكتظاظ  
أنوثها منيرا . كانت جميلة كزهرة رغم شحوب وجهها . تابعت جلالها  
مشوفا . تحدثنا قليلا . استأذنت لتهنيء نوال . غمز بعينه فسي  
اثرها . قال :

- لاحظت انها تأملتك باهتمام . أنت مدين لي بالشكر . أثرت  
اهتمامها بتاريخك العظيم !  
آه .. تأمل المهزلة .. لتضحك حتى الموت .. المثل هذا كنا  
نصنع التاريخ ؟ ..

- أشكره .. ولكن من هي ؟  
ضربني على كتفي ضاحكا . قال :  
- لا تخش شيئا .. وهي في ظروف نندم معها المفاومة ..  
- يعني ؟

- أسر زوجها في عملية حربية منذ عام .. والوحدة مرار كما  
تصلم !  
ماعت نفسي . تقلص حجابي الحاجز . تمللت بالحمام . بمدت  
عنه . قال ملاحقا :  
- لا تشغل بالك .. بوسع نوال أن تسهل الطريق ..  
.....

عند الباب التحقت بكوكبة الرفاق . لم يقطع وصولي حديثهم .  
في البداية بدأ كاحاديث الزمان الماضي .. ثم انتشرت العفونة .  
تحدث واحد عن « سام ٢ » وغارات العمق . وروى مطلع بعض الاسرار  
الفكهة . وقال ثالث انه يكتب مسرحية عن بحر البقر وفيلما عن مصنع  
أبي زعبل . قهقهت أعماقي بالخمر الزاعقة فيها . قلت : عال .. صفقة  
رابحة لا تغل عن الفين من الجنيهات . علبة فالיום كاملة لا تفيد . وفي  
الاسبوع الماضي قال حلمي : كطبيب وكصديق أحذرلك من ادمان الفاليوم،  
سنصاب بانهايار عصبي مفاجيء فحذار . مرّ شبح المرأة الفارعة الطول  
بجوارنا . أغصيت خجلا . هل يشير حلمي يوما لزوجتي ويقول ان  
الوحدة مرار !

سحبني واحد الى ركن قصي . قال :  
- لديك أخبار عن صابر ؟

- مضى أكثر من عام على غيابه .. في البداية صدوني عندما  
سألت الى حد التهديد .. ثم انقطعت الاخبار .  
- أخطرتني رسول منه انه في ظروف سيئة .  
سألت ملهوقا عن التفاصيل . قال :  
- عاملوه بشراسة فأضرب عن الطعام وعاوده الداء القديم .  
بدت التفاصيل مرعبة .. حكي طويلا ثم قال :  
- معلوماتي ان المسألة خطيرة فعلا . ثقب في الرئة اليمنى بمساحة  
أربعة سنتيمترات مرعبة .

توقف الحديث .. افتتح البوفيه .. أكلوا هنيئا وشربوا . ضحكت  
أكثر مما ينبغي . قلت اني مريض .. مريض .. عدت في الهزيع الاخير  
من الليل مرهقا .. فتحت حورية عينيها . غطت طفلتنا . قالت :  
- نحن في الفجر .. لماذا نقلقنا ؟

- كنت في حفل زفاف ..

سأخرة قالت :

- عقبال عندك ..

لم ارد .

عندما اخبرت حلمي قال :

- خير سيء .

- لا بد من التصرف .

- آه .. طبعا .. ولكن ليس في يدنا شيء ..  
طالعت نظرتي المذهولة . قال :

- اسمع .. نوال تعرف بعض الناس .. اصدقاء زوجها الاول .  
صحت بجزع :

- هؤلاء ؟!

- نعم .

- ولكنهم ...

نفخ ساخطا :

- لا تعزجني .. ما فات مات . سنسافر غدا الى بيروت . بعد  
عودتنا من شهر الصبل ترتب لذلك ..

ضحكت . فهقته . نظر اليّ دهشا . قال :

- عمر .. أعصابك مرهقة جدا .. حذرتك وكرر التحذير ) .  
فالت حورية :

- لماذا لا تنام ؟

ذلك الحلم المستعصي مني يتحقق ؟

- آه .. ناوليني النوم .. واغلي كوب اللبن .

قامت برمة .. اختفت في اتجاه المطبخ . فتحت الشرفة . كانت  
الفتاة تعود من جولتها الليلية . تأملت ففرها من الشرفة كهلوان صغير .  
أذن الفجر من بعيد « يا نائما بين الانام .. قم واذكر الحي السذي  
لا ينام . مولاك يدعوك الى ذكره وأنت مشغول بطيب المنام » . ما أنسى  
أن تكون حيا ولا تنام . سرى النوم في الاعصاب . ولكن أين النوم ؟  
تربيع المفرد في الثلث الاخير من رأسي . قرأ : « يا صاحبي السجن ..  
أما أحدكما فيسقي ربه خمرأ . وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من  
رأسه . فضي الامر الذي فيه نستفتيان » .

### ٣ - النوم

ما أطول الطريق . ما أخفق زحامه . برودة مطلع الليل . وتسأل  
الى أين ؟ وما من مجيب . هل تعود ليالي النوم حفا ؟ ثلاث ليال كاملة  
وأنت يقط تماما . الزعيق المفاجيء لانفسه سبب . الرجفة الطارئة .  
اهتزاز الشفاه . وتقول حورية : عيناك مفتوحتان على الآخر . نظراتك  
مخيفة فهل أنت بخير ؟ نعم . أعصابك مشدودة كحبل مركب يشده  
انسان بانصصى فونه . المركب ثقيل . والحبل مشدود . مشدود .  
وتذكر يوم عرض عليك العمل فجبنت وتمللت بما تمللت . رفع أكثر من  
صديق كتفيته يانسا . بصقت الف مرة على عتبة بيونهم . نحس  
آخرون . وصدرت البرقيات ساخنة ومحتجة . استدعاك الرجل .

ألقي البرقيات في وجهك . صاحت ملامحه المنتفخة :

- سبق أن حذرتك من التدخل فيما لا يعينك .

- لكن هذا يعينني .

زاعقا : لست ببقية أهله ..

- لا أهل له وأنا صديقه .

- أضرت بكما الصداقة قديما فاهتم بشؤونك ..

- هذه شؤوني .. أخص شؤوني ..

ابتسم ابتسامة صفراء . قال :

- اإظهار اني سارسلك لأوانسته .

نظرت اليه بشراسة . ها هم زبائنه يتبعونك . كالظل يمشون  
وراءك . بمظاهرة مرية يمارسون عملهم . كأنهم يقولون : نحن خلفك  
فلا تفعل شيئا . وقد نجحوا ، أصبحت أسيرا في أيديهم . لا تفعل  
شيئا . لا تتصل بأحد .

وأسس في الفجر . خبط الباب . قمت مذعورا . وجدت وجهها  
غريبا . عانيت حتى تذكرت . قال بلهفة :

- أستاذ عمر ألا تتذكرني ؟ أنا الشاويش متولي ..

- أهلا ... تفضل .

تتابعت أنفاسه . قال :

- لا تؤاخذني .. حاولت أن أجيء نهارا لكن الزبانية حولك ..

- خيرا يا عم متولي ..

- الاستاذ صابر في خطر .. وهم يصرون على اهمال علاجه ..

روى التفاصيل المروعة . فام ، طلبت منه أن ينظر . عدت بنفوذ

دسستها في يده . رفض باباء . قال :

- الله يسامحك يا استاذ .. صحيح نحن نأخذ أحيانا ، لكن

الاستاذ أخويا .. عيب !

بكت حورية عندما سمعت التفاصيل . ليلة باكية حزينة بلا نوم .

عابتني في العصر فكرة شيطانية . سافودهم في رحلة طويلة على

الافدام . أطول رحله في التاريخ . رجل بلا نوم يفود بابيه في رحلة

الى أعماق المدينة . من الجيزة بدانا . وها نحن في مطلع شارع الازهر .

لا بكل أقدامك . كيف نأتى لك ان تمشي كل هذا بلا نوم ؟ وفهت أشرب

في معي . أسرع الرجل يتحدث في النليفون . فلت انه لا بد وقد

تعب من المشي ويريد بديلا . تركت كوب الماء فجأة وخرجت مسرعا .

لم يكمل مكانته . لكنه يجري خلفي ملهوبا . فصرت خطواتي حتى

لحمتي . الزحام يزداد . يتخلف . أين كان كل هؤلاء الناس في الايام

الماضية ؟ كيف عميت العين عنهم ؟ الدنيا برد .. برد .. لو معطف

أو طافية . فال صوت : مولد الحسين كل سنة وأنتم طيبون . غبت

في الزحام . تتعني بمسمة . ثلاثة أيام بلا نوم . حبة الفالسيوم فعدت

مفعولها . القلق يحطم الاعصاب . لحظة ارتخاء واحدة . لحظه نوم .

أريد أن أغمض عيني . جفوني مرهفة .. تنزأ لا يطاق . امش .

امش . امش . رأسك عار فهل تخطف عمامة أم طربوشا ؟ المدينة

الفلاحي أنسب الاشياء . جلابيب وبسمل وبلاطي . فساتين وجنولات

وملايات لف . ناس . ناس . ناس . يزعمون فلم لا تزعق . يضحكون

فلم لا يواجههم بالحقيقة المرة . رائحة العرق البستوي ضعيفة . لكن

الزحام دافئ . الرجل يمشي . أنا أمشي . في هذا الشارع قال :

سأعود الى العمل . أي عمل ؟ لم يكن لنا عمل سواه . لا تجهل المخاطر

طعا . لم أجهلها يوما . أفكر ثم نتناقش . عند المناقشة جيت .

نملك قدرة على الكلام تحيل الباطل حفا ، والحق باطلا . امش .

فلتتحطم سيفانه . لا يهمني ماذا يحدث بعد ذلك . سيمود لرئيسه

ذي الوجه المنتفخ باكيا : حطم أقدامي يا بيه .. دسدهشها .. يا لها من

نكتة . لاضحك عليها . لماذا لا تضحك . نخجل ؟ لا أحد يسمعك ..

الا نسمع الضجيج ؟ فلنضحك مرة . نبتسم . البسمة بلهاء . لا أحد

قد تنبه . نضحك بصوت أعلى . ها . ها . ها . ها . برافو . فهقه .

فهقه . لماذا ينظر اليّ هذا الرجل . نسأل . مش معقول . ماذا حدث

لي ؟ هل بدأ الانهيار الذي تنبأ به حلمي ؟ انهيار ماذا ؟ حلمي كلب

(( وولف )) ضخم نافه . انسان يبيع كل شيء بفخذي امرأة . سفخص .

اسأل الرجل :

- يا سيد .. يا مواطن .. لماذا تبتسم ؟ أنا ألكم . نعم انت .

أظنني مجنونا ؟ لا .. انتظر . فف حلفتك بالحسين .. سافول لسك

شيئا .. هذا الرجل الذي يمشي ورأني مخبر .. تعال هنا يا ابن اللثيمة

.. هل تنكر انك مخبر ؟ فقوا يا عالم .. يا هوه .. يا مواطنين ..

يا جدعان القورية والتربية والجمالية والحسين .. فقوا .. اللي يحب

الناس الجذعان يصفق . كمان نصفيقة . هذا الرجل مخبر ، وأنا أسأله

أمامكم : لماذا تمشي ورأني ؟ أجب يا روح أمك ..

صوت : هل أنت مخبر بجد ؟ آخر : تكلم . الرجل خائفا : اتركني

يا عم انت .. هذا رجل مجنون .

- اسكت يا ابن الكلب .. بطاقتك .

- ليس معي بطاقة ..

- ألم أقل لكم ؟

صوت : لماذا تمشي وراءه ؟ آخر : مخدرات ؟ ثالث : دعارة ؟

- لا جاسوسى .

- اسمعوا يا عالم .. يا هوه .. أنا جاسوس . يا نذل يا خادم

الانذال . خذوا هذه الجاكتة . والكرافتة . والقميص . والفانلة .

هذه الندية السوداء . وهذه . وهذه . أربعة رصاصات أصابنتي في

بور سعيد سنة ١٩٥٦ . أسألوا ويليامز ضابط المخابرات الانكليزي

كم كيلو من لحمي نهشته كلابه .. امسكه يا معلم قبل أن يهرب .

(( تعال هنا يا ابن الزانية . ماشي وراءه ليه ؟ )) « يا عالم مظلوم .

ليس لي به شأن دا راجل مجنون » .

- سامع يا معلم .. أنا مجنون .. ثلاثة أيام بلا نوم أولاد الكلب ..

- يا معلم لا تصدقه .. هذا رجل كافر ، من اللي بيشتمو ربنا ..

- وانت مالك .. يعني ربنا حاروك فوي .. ولا يعني بلايك ..

- بذمتك يا معلم .. واحد صاحيك ، أخوك ، حبيبك ، أكلت معه

عيش وملح . نمتو سوى على البرش ، في الندى والظل . في المطر

والحر . وعيان . سل درجة نالتة اللهم احفظنا ويشفي كل عيان .

في صدره . هنا يا معلم . تقب أربعة سنتي . فد الريال الفضة

القديم . ومع ذلك يحسوه . كفرت اللي فلت حرام ، عيب ، ما يصحش .

فلت لهم بالدوق بالانسانية .. رجيتهم . سرحوا ورأني ميت كلب مسفور ،

ده واحد منهم ..

- عدالك العيب يا استاذ .. بطلوا افترا بقى على العالم !

- يا معلم أنا غلبان .. أكل عيش .

- ابحت لك عن شغلة نظيفة .. أوسخها شغلة أشرف من شغلتك .

سرح نسوان . بيع مخدرات . لكن أذية الجذعان لا ..

- يا معلم .. دول كفرة .. دا رافضي وابن رافضي ..

- برضه بيقول لي ربنا .. انت هاستغفلي .. هانسرح بي .

طب وديني وما أعبد ما أنا سايبك الا بضرب المركوب . يا جذعان .

يا رجالة . اقلع يا جدد انت وهو اللامؤاخذة . اللي يحب ربنا

يضرب . اللي يحب النبي يضرب . اللي يحب الحسين يضرب . كرامة

لك يا سيدي يا حسين يا ميت مظلوم في بلاد القرية . كرامة للحسين .

اضربوا . اضربوا المغتري ابن المغتري . بالمركوب يا سيد . ايديك لا .

ما نوسخهاش . بالمركوب .

ضربوا . ضربت . تزايد الزحام . في قلبه رأيته . كانت فامته

المحنية فد استقامت . يرى جيدا بلا نظارة . يحمل حذاءه القديم .

يضرب بقوة كشاب عفي . قلت :

- يا عم محمود .. يا عم محمود يا مهدي .. أنا عمر .. عمر

الدهشان ..

نظر اليّ . برفت عيناه بنظرة قوية :

- مش مهم .. اضرب . اللي يحب الحسين يضرب . كرامة لك

يا سيدي يا حسين ، يا ميت مظلوم في بلاد القرية .. اللي يحب الشعب

يضرب .. اللي يحب مصر يضرب ..

تدافعت موجات الزحام . كتل كثيفة . كثيفة . كقاع نهر دافئ .

فصلت بيننا . أين أنا ؟ أين هو ؟ أين أي انسان ؟ بلا حذاء ونصفي

الاعلى عار . أين برودة مقتل الليل ؟ وسط الزحام دافئ .. اجساد

طرية وأخرى خشنة . زغاريد نسائية . أرداف وأنداء . أذرع خشنة

مفتولة .. كرامة لك يا سيدي يا حسين يا ميت مظلوم في بلاد القرية .

دفع .. دفع .. أريد أن أنام .. أيد كثيرة تربت على رأسي .. وجه

زوجتي . ابنتي تبتسم . تتسع بسمتها . رائحة عرق شتوي مختبئ ..

أخيرا سأنام ..

وسط الزحام سأنام .

صلاح عيسى

مقتل طره السياسي - القاهرة - ١٧ مايو ١٩٧٠